

قيام إمارة أولاد مقران بقلعة بني عباس في مطلع القرن 16

أ. كحضر بوطيط

جامعة سطيف

تعتبر أسرة أولاد مقران من الأسر الجزائرية الكبيرة ذات النفوذ، حيث أسست إمارة حقيقية في قلعة بني عباس في قمم جبال البيبان مع مطلع القرن 16 الميلادي، وقد لعب أمراء هذه الأسرة دورا هاما في تقديم الدعم والمساعدة للإخوة بربروس في تأسيس إيالة الجزائر وإلحاقها بالدولة العثمانية، ثم استمرت الأسرة تمارس نفوذها في المنطقة طوال فترة الحكم العثماني في الجزائر، وتهدف هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على جانب من التاريخ المحلي وإبراز الدور الذي لعبه السكان المحليون في صناعة تاريخ الجزائر في العصر الحديث.

At the beginning of 16th century, Ouled Mokran's was one of the greatest and most powerful Algerian families who founded a true regency of Beni Abbas palace on the mountain of el Biban the regent of this family played an important role in supporting and sustaining the Barbarous Brothers in joining Algeria to the ottoman's government, they kept purchasing their power in the region during the ruling period of the ottoman in Algeria. This study aims at shedding some light an a significant part of the local history, and showing the role of the native inhabitants in building up the modern Algerian history.

بعد سقوط دولة الموحدين بالمغرب العربي ظهرت على أنقاضها ثلاث دويلات صغيرة متناحرة متطاحنة فيما بينها، وهي دولة بني مرين بالمغرب الأقصى ودولة بني حفص بتونس ودولة بني زيان بالمغرب الأوسط (الجزائر)، ولم تكن الدول المسيحية جاهلة الوضع الذي أصبحت عليه المنطقة من ضعف وتناحر، فكانت تقوم بالغارات البحرية على أهم المدن والموانئ بهدف الاستيلاء عليها واستغلالها في التجارة لا سيما بعد حركة الكشوفات الجغرافية التي فتحت أعين دول أوروبا على التوسع والسيطرة والاستعمار، فكان من أهم نتائج تلك التحركات سقوط عدة مدن وموانئ هامة في يد الاستعمار البرتغالي والأسباني (سبتة وجبل طارق)، (وهران والمرسى الكبير دلس تنس بجاية) (وتونس وطرابلس الغرب)، وقد ارتبط التواجد العثماني بالمنطقة بسقوط غرناطة آخر معاقل المسلمين بالأندلس والاضطهاد الفظيع الذي تعرض له المسلمون على يد المسيحيين بمباركة وتشجيع كبار رجال الدين، إذ هب الإخوة بربروس لتلبية نداء الإستغاثة من إخوانهم في الدين فوققوا في وجه الصليبيين يقارعونهم في عرض مياه البحر المتوسط بل أن جرأتهم وشجاعتهم دفعتهم إلى مقاتلة الأعداء

في عقر دارهم، ويشهد التاريخ أن الإخوة بربروس أنقذوا الآلاف من الأندلسيين من الإبادة على يد المسيحيين.

ولم يكن في الواقع نفوذ الدولة الحفصية ولا الزيانية يمتد إلى المناطق الجبلية الوعرة حيث سكان القبائل الذين كانوا يتمتعون بالاستقلال في إدارة شؤونهم المحلية بأنفسهم فتامت بالمنطقة إمارتان أو مملكتان هما إمارة كوكو وتحكمها أسرة آل القاضي بالجرجرة وإمارة بني عباس بالبيبان وتحكمها أسرة المقراني، وهذه الأسرة موضوع الدراسة كانت دعامة أساسية للحكام العثمانيين في المنطقة الأشد وعورة والأصعب تحكما والأغنى من حيث الموارد لاسيما فيما يتعلق بالطاقة الغابية التي كانت تشكل حجر الأساس في الإيالة الجزائرية، حيث قوة الأسطول البحري أو ضعفه مرهونة بهذه المادة الحيوية.

تأسيس إمارة بني عباس:

على الرغم من أن المؤرخ والرحالة المغربي ليون الإفريقي (الحسن الوزان) ممن عاصروا فترة تأسيس هذه الإمارة، إلا أننا نستغرب أنه لم يشر إليها إطلاقا، ويعتبر المريني (مؤرخ البلاط الحفصي ببجاية) المؤرخ الوحيد الذي أشار إلى القلعة على الرغم من أنه ذكرها بقلعة النونوعة وهي قلعة بني عباس حسب ما يذكر ابن أوجيت⁽¹⁾، في حين يذكر إسماعيل العربي أنها قلعة بني حماد⁽²⁾ غير أن جل المصادر تؤكد أنها قلعة بني عباس.

ومهما يكن من أمر، فإن تاريخ أسرة أولاد مقران يبدأ في أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر حسب ما ذكر فيرو حيث ارتبط تأسيس إمارة أولاد مقران بقلعة بني عباس بأسرة ابن القاضي التي تنتسب إلى مؤسسها الشيخ عمر بن القاضي الذي التجأ هو الآخر إلى جبال جرجرة في أواخر القرن 15، قادما من المغرب الأقصى⁽³⁾، وهو ينحدر أيضا من الأشراف الأدارسة، حيث استطاع بنفوذه الديني أن يوحد سكان جرجرة، الذين مزقهم الحروب والتطاحن، ويؤسس مملكة بجبل كوكو عرفت باسمه⁽⁴⁾ وأقام بها زاوية للتعليم، فالتحق سيدي عبد الرحمن جد أولاد أمقران - الذي قدم هو أيضا إلى المنطقة من المغرب الأقصى كما سبقت الإشارة إلى ذلك - بهذه الزاوية لمزاولة دروسه وقد لاحظ فيه شيخه عمر بن القاضي ذكاء منقطع النظير، وتبحر في العلم، وصفات فاضلة، وقد حملت تلك الصفات الناس على الإعجاب به وتقديره واحترامه، مما جعل شيخه يغار منه ويحسده، خوفا على مكانته ونفوذه في وسط السكان، فبدأ يدبر له المكائد ويخطط للتخلص منه، ولما علم الشيخ عبد الرحمن من أحد زملائه في الزاوية بما يكن له شيخه عمر بن القاضي من حقد وغيرة، قرر مغادرة الزاوية، فلجأ إلى منطقة بني عباس، وكان عمر بن القاضي يعتقد أنه لن يتمكن من اجتياز وادي الساحل بسبب غزارة مياهه، وتدققه القوي ووجود السباع، لكنه وصل إلى منطقة بني عباس حيث استقبله سكانها ورحبوا بقدومه فاستقر بينهم، وأول عمل قام به سيدي عبد الرحمن هو بناء زاوية لتعليم السكان بمكان يسمى نقرابت وهي تعني الكوخ⁽⁵⁾.

وفي منطقة بني عباس تبدأ قصة الشيخ عبد الرحمان مع السكان، الذين التقوا حوله حين التمسوا فيه التدين والتقوى والنسب الشريف، وكانت سمعته الطيبة تزداد في أوساط السكان الذين ولد علاقته بهم وتمكن من كسب ودهم تمهيدا لتأسيس مملكته حسب ما يذكر فيرو⁽⁶⁾. وكان سكان منطقة القبائل (زواوة) كما يذكر سعيد بوليفة يشعرون بشرف كبير واعتزاز عندما يكون بينهم مرابط، لأن ذلك يعني توفر الأمن والاستقرار، ويعد بمستقبل جيد للقبيلة، كما يوفر لها الحماية الكافية وتنزل بها البركة، فضلا عن الاحترام الكبير الذي يجلبه هذا المرابط للقبيلة من طرف السكان والقبائل المجاورة لها⁽⁷⁾، ويؤكد ذلك أيضا أبو القاسم سعد الله حيث يقول: "إن للمرابطين كرامات جعلت الناس يعتقدون فيهم ويطلبون بقاءهم بينهم وكانوا حريصين أيضا على مصاهرتهم والالتفاف حولهم لادتهاء بهم في شؤونهم الدينية وكانوا يلجأون إليهم في حل خلافاتهم ونزاعاتهم"⁽⁸⁾، ويبدو أن الشيخ عبد الرحمان طاب له المقام بين سكان بني عباس فقرر الاستقرار بينهم.

وكان من عادة أمراء كوكو استغلال قبائل المنطقة والاستبداد بهم، وكانت قبيلة بني عباس إحدى ضحايا الظلم والجور الذي كانت قبائل زواوة تمارسه في ظل حكم أمراء آل القاضي حسب رواية فيرو، ومن بين عادات رجال ابن القاضي التقليدية أنهم كانوا يسخرون سكان بني عباس في السوق الأسبوعي الذي كان يعقد كل يوم أربعاء بمنطقتهم، وكان هذا السوق من أكبر الأسواق في المنطقة يأتيه السكان من كل النواحي، وفيه اعتاد رجال ابن القاضي على إجبار أربعمئة فرد من بني عباس بأن يقوم كل رجلين منهم بحمل عمود من الخشب على الأكتاف ثم تعلق عليه الأغنام بعد ذبحها وسلخها وتعرض للبيع وهم على تلك الحال طوال اليوم، وذلك دون مقابل ومن دون أن يعترض هؤلاء على ذلك، وفي أحد الأيام حضر الشيخ عبد الرحمن إلى السوق وشاهد هذا السلوك المهين والمذل من رجال كوكو اتجاه بني عباس، فاستاء كثيرا منهم، وتقدم من الشيخ المسؤول عن السوق ووبخه وطلب منه الكف عن الإساءة لأشخاص مثله⁽⁹⁾، فرد عليه صاحب السوق قائلا: "إن الأمر لا يعينك وإن هذه عادة قديمة لست أنت من يغيرها"، فاعتاض سيدي عبد الرحمن من هذا الرد الذي لم يكن ينتظره، وعزم على القيام بعمل ما يمكنه من تخليص هؤلاء النساء من عبوديتهم، فدعا شيوخهم للاجتماع به في مساء ذلك اليوم وقال لهم لماذا يفعلون بكم هذا ومنذ متى؟ ولما أنتم خاضعون لهم؟، فأجابوه بأن رجال ابن القاضي يملكون من القوة ما لا قبل لهم بمواجهته، ولا يوجد من يمنعهم عنهم ويحميهم من ظلمهم وبطشهم⁽¹⁰⁾، حينئذ قال لهم الشيخ عبد الرحمان ما أنتم فاعلون إن خلصتكم من هذا الظلم؟، فأجابوه بأنهم يعاهدونه على الطاعة والولاء والخضوع له ودفع المهرم له ولأبنائه من بعده، بعد ذلك وضع الشيخ خطة محكمة، وقرر تخليص بني عباس من استبداد رجال ابن القاضي، وفي يوم السوق الموالي ذهب الشيخ مع رجال من بني عباس وتظاهروا بأنهم جاؤوا للتسوق كعادتهم، لكنهم هذه المرة كانوا يخفون أسلحتهم تحت ثيابهم، ورافقتهم قوة أخرى اختفت قرب مكان السوق في انتظار الإشارة من الشيخ عبد الرحمان الذي قتل صاحب السوق عند أول لقاء به، وأعطى الإشارة لأصحابه فانهالوا ضربا

على رجال ابن القاضي الذين فوجئوا بالهجوم الشرس لبني عباس⁽¹¹⁾، فمات كثير منهم ولم ينجو بالفرار إلا القليل فلاحقهم بنو عباس حتى الضفة اليسرى من وادي الساحل، ومنذ هذه الحادثة أصبح وادي الساحل يشكل حدا فاصلا بين بني عباس وكوكو⁽¹²⁾، وبدأ العداء التقليدي بين بني عباس وإمارة كوكو واستمر هذا العداء طوال الفترة العثمانية حسب مرمول⁽¹³⁾ وهابيدو⁽¹⁴⁾ والراشدي⁽¹⁵⁾، ويدعم صحة هذه الرواية أحمد ساحي معتمدا على وثيقة يعود تاريخها إلى فترة قيام إمارة كوكو ومحجى الأتراك إلى الجزائر، حيث يقول صاحب الوثيقة: "السلطان في ذلك العصر هو المسمى سيدي عمر بن القاضي، وهو يتحكم في بلاد الزواوي كلها وكان حكمه قاهرا جدا، ومن عادة هذا السلطان أن يحمل البغال والحير من عرشنا في وقت الصيف لقتل زرعه والخدمة عليه، ومن عادته أن يأتي هو وجنوده إلى سوقنا المسمى بالخميس في ذلك الوقت والآن يسمى بالأحد، يلزم العرش بالضيافة تصل إليه في ذلك المحل مع العلف الكثير لخيول جيشه"⁽¹⁶⁾، ولا يزال أهل بني عباس إلى يومنا هذا يسمون هذا السوق سوق الباطل.

وبعد أن تمكن بنو عباس من التحرر حان وقت وفائهم بما عاهدوا به الشيخ عبد الرحمان فأعلنوا منذ ذلك الحين خضوعهم له واعترفوا به سلطانا أو أميرا عليهم، وأصبحوا يدفعون له المهر، ومن الطبيعي أن يدفع ذلك أمير كوكو ورجاله إلى الانتقام والثأر من بني عباس، والعمل على إرجاعهم إلى سلطتهم كما كانوا من قبل⁽¹⁷⁾.

وقد غيرت ثورة بني عباس ضد إمارة كوكو مجرى تاريخ بني عباس الذين عانوا من استبدادهم، وشكلت الإنطلاقة الفعلية لمكانتهم ونفوذهم في المنطقة، وازدادت شهرة الشيخ عبد الرحمان وتوافد على زاويته العديد من الطلبة⁽¹⁸⁾، على عكس أمير كوكو الذي كان سيئ السمعة في وسط سكان زواوة كما يذكر بوليفة⁽¹⁹⁾ بسبب استبداده.

بعد ذلك بقليل توفي الشيخ سيدي عبد الرحمان في حوالي عام 1500 تاركا لابنه أحمد الذي خلفه في حكم الإمارة مكانة وسمعة كبيرة في وسط سكان المنطقة، ودفن كما أوصى بالقرب، وأصبح ضريحه مزارا للسكان⁽²⁰⁾. ويذكر فيرو - معتمدا على الرواية الشفوية المتواترة عند سكان القلعة - أن إمارة بني عباس ارتقت إلى درجة كبيرة من القوة والازدهار، في عهد السلطان سيدي أحمد بن عبد الرحمان الذي كان يتحلى بصفات فاضلة أكسبته شهرة كبيرة وسمعة طيبة في وسط السكان ساعدته على توسيع حدود الإمارة الصغيرة التي لم تكن تتعدى منطقة بني عباس، حيث خاض حروبا عديدة ضد أعدائه أمراء كوكو وكان ينتصر عليهم في كل المعارك، وحتى لا تكون إمارته هدفا سهلا لأعدائه أمراء كوكو قرر قتل مقر حكمه إلى مكان حصين، وبعد أن اهتدى إلى مكان يتوفر على الماء وشروط الدفاع⁽²¹⁾ أمر ببناء القلعة، فوق قمة جبل بحيث لا يمكن الوصول إليها إلا عبر طريق ضيق وشديد الانحدار، وبسبب ارتفاعها الشديد أطلق عليها فيرو اسم عش النسر، وسمّاها فايسات Vayssette بالقلعة الجوية، وأشار الشيخ عبد الكريم الفنون إلى ارتفاع القلعة وحصانيتها في قوله: "وقد حكى لي أبو

العباس الغبريني المذكور عن بعض تلامذة أبي مهدي عيسى بعد وفاته، وكان يدعى محمد العباس ومزله في نواحي القلعة العباسية.. قال أبو العباس: فوجها من المحلة إليه فسرنا زمانا طويلا حتى أعيانا السير..⁽²²⁾ ، أما حمدان خوجة فقد قال عنها "وفيها مدينة تدعى القلعة لا يتم الوصول إليها إلا بشق الأنفس"⁽²³⁾ .

وقد اتخذ أحمد بن عبد الرحمان من القلعة عاصمة ومقرا لحكم الإمارة، وعندما توافد عليه السكان بكثرة قام بتشديد القصبة⁽²⁴⁾ لإسكانهم بها وأسس زاوية لتعليم السكان، ورغم حصانة القلعة طبيعيا إلا أنه عزز من تحصينها بإحاطتها بسور كبير من الجهة المكشوفة التي توصل إلى القلعة⁽²⁵⁾، لا تزال بعض آثار هذا السور بقلعة بني عباس إلى يومنا هذا.

وبعد أن استقر سيدي أحمد بالقلعة وكثر عدد أتباعه أعلن نفسه سلطانا على إمارة بني عباس، وبدأ يسعى إلى مد حدود الإمارة وتوسيعها، وقد تميز حكمه بالعدل وتوفير الأمن والاستقرار والطمأنينة للسكان، فجاءته عائلات كثيرة من مختلف مناطق وادي الساحل وحتى من قلعة بني حمد للاستقرار بإمارته وأعلنت خضوعها وانضواءها تحت حكمه⁽²⁶⁾. لم يعدم الحيلة كما لم يكن يقتصه الدهاء حيث كان مدركا منذ البداية تربص عدوه ابن القاضي، وسعيه للقضاء عليه وعلى إمارته في المهد قبل أن تتمكن من تقوية نفسها، فكان حذرا محتاطا من مخططاته، وفي الوقت نفسه كان ابن القاضي حريصا على بناء قوة تمكنه من الثأر من بني عباس، فلم يكن يتوقف عن تحريض رجاله ضد السلطان سيدي أحمد قائلا لهم إن لم نسرع بهاجمة ابن عبد الرحمان فإنه سيهاجمنا في عقر دارنا ويستولي على إمارتنا⁽²⁷⁾.

ولم يترك عمر بن القاضي أمير كوكو الفرصة لسلطان بني عباس في تحصين عاصمة حكمه وزحف بجيش كبير على القلعة لكنه مني بالهزيمة، أمام حصانة القلعة وقوة جيش السلطان أحمد الذي كان بقيادته، فانسحب عمر بن القاضي مع جيشه تاركا وراءه عددا كبيرا من الموتى والجرحى فكانت تلك أول مواجهة دموية بين الإماراتين⁽²⁸⁾.

وكان من نتائج هذا الهجوم الفاشل لأمير كوكو تزايد قوة وشهرة بني عباس بينما كانت سمعة عمر بن القاضي تزداد سوءا بسبب استبداده وظلمه، حيث يخبرنا بوليفة أن أمراء كوكو كانوا يرتكبون المظالم في حق قبائل زاووة، الأمر الذي لم يتقبله هؤلاء وكانوا يشيرون ضدهم، فقاموا بقتل الشيخ عمر بن القاضي وقتلوا الحسين بن أحمد بن القاضي فيما بعد بسبب استبداده أيضا⁽²⁹⁾. وبعد مقتل عمر بن القاضي خلفه ابنه أحمد الذي عاصر مجيء الأتراك إلى الجزائر، وقد سار على نهج والده في عداؤه لبني عباس⁽³⁰⁾ وقد أشار الورثيادني في رحلته إلى عدا بني عباس وكوكو حيث ذكر أن الشيخ عبد الرحمان جد أولاد مقران كان مرابطا خلال القرن التاسع الهجري (السادس عشر الميلادي) ولقبه بالشريف، وذكر أيضا أن ابنه أحمد هو من بنى قلعة بني عباس، وأسس المملكة خلال القرن العاشر الهجري (السابع عشر الميلادي)، حيث نظم الجيش وفرض الضريبة وكان في حالة حرب مع إمارة كوكو، ووسع المملكة حتى

بلغت تونس ووادي ريغ، وجنوبا حتى ميزاب والأغواط، وقد عمرت هذه المملكة ثمانين سنة (31)، وبعد جهود مضنية في تحصين القلعة وصراع كبير مع إمارة كوكو توفي السلطان أحمد بن عبد الرحمان في حوالي عام 1510م ودفن بالقراية إلى جوار والده كما أوصى (32).

يتضح لنا مما سبق أن لتأسيس إمارة أولاد مقران بقلعة بني عباس له علاقة وثيقة بإمارة كوكو إن صحت القصة التي أوردها لنا فيرو، فكيف سيكون موقف أمراءها من الوجود الأسباني في بجاية؟ وكيف سيكون موقفهم أيضا من الأتراك الذين تزامن مجيئهم إلى الجزائر مع ظهور إمارتهم؟

4- علاقة إمارة بني عباس بالحامية الإسبانية ببجاية :

يذكر فيرو أنه بعد وفاة السلطان أحمد بن عبد الرحمان خلفه ابنه عبد العزيز الذي سيرتبط اسمه بمقاومته للأتراك والذي سيلعب الدور الأساسي في تاريخ أسرة أولاد مقران، ذلك أن حكمه جاء في فترة تميزت بكثرة الأحداث والتغيرات ليس في تاريخ الجزائر فحسب بل في حوض البحر المتوسط عامة وفي تاريخ المغرب العربي خاصة، ويبدو أن الأقدار شاءت لعبد العزيز أن يشهد أحداثا جساما في فترة حكمه الطويلة (حكم من حوالي 1510 إلى غاية وفاته عام 1559)، فقد شهد الاحتلال الأسباني لبجاية عام 1510، وعاصر مجيء الأتراك إلى الجزائر، ونهاية الحكم الحفصي بها وغيرها من الأحداث البارزة التي ميزت القرن السادس عشر الميلادي، ويعتبر السلطان عبد العزيز من أبرز السلاطين الذين حكموا إمارة بني عباس، فكيف سيكون موقفه من تلك الأحداث البارزة التي ميزت عصره؟

لقد تميزت علاقة إمارة بني عباس بالحامية الإسبانية ببجاية بالتحالف والتعاون في البداية، ثم انتهت بتقصف التحالف وإعلان الحرب عليهم كما سنبينه فيما يلي.

أ - علاقة تحالف وتعاون :

منذ أن تمكن الأسبان من احتلال بجاية عام 1510م (33) كان الملك الأسباني فرديناند الكاثوليكي حريصا على إيجاد حليف قوي في المنطقة لحماية ظهر الحامية الإسبانية بالمدينة من الداخل أو ما يسميه الكتاب الأوروبيين (L'arrière pays)، وكذلك لضمان تموين مستمر لها فتوصل الملك - بعد مفاوضات - إلى عقد تحالف عسكري مع سلطان قلعة بني عباس (34) في حوالي عام 1511 وقد نص ذلك التحالف على أن يعترف الملك الأسباني للسلطان عبد العزيز بحكم المناطق الداخلية باستثناء الموانئ الساحلية، والوقوف في وجه هجمات حاكم قسنطينة أبو بكر الحفصي الذي كان لا يزال يعمل جاهدا على استرجاع بجاية والاستيلاء عليها (35)، كما نص التحالف المبرم أيضا على أن يدفع سلطان بني عباس إلى حاكم بجاية 3600 قيسة من القمح و100 قيسة من الشعير، و50 قيسة من الحبوب وألف خروف و50 بقرة،

وعلاوة على ذلك يقوم سكان المنطقة المجاورة لمدينة بجاية التابعة لنفوذه بتزويد الحامية العسكرية بالمدينة بألف (1000) حمولة⁽³⁶⁾ من الخشب دون مقابل⁽³⁷⁾.

غير أن السلطان عبد العزيز لم يلتزم بتلك الشروط فيما بعد الأمر الذي كان يدفع بجنود الحامية إلى غزو المناطق المجاورة من حين لآخر حين تشد بهم الأزمة، وكانوا يصبون غضبهم على تلك المناطق، وذلك من خلال أعمال النهب والسلب والقتيل، وكان بعضهم يضطر إلى مقايضة الأسلحة بالغذاء مع سكان تلك المناطق، وذلك بعد نفاذ مؤونتهم وتأخر حكومتهم عن إمدادهم بالمؤونة في الوقت المناسب⁽³⁸⁾.

وقد أشار صاحب الغزوات إلى هذا التحالف، حيث يقول أنه في منتصف عام 1516 كتب عروج الذي كان مستقرا بمدينة الجزائر رسالة إلى أخيه خير الدين بجيجل يخبره بالسير إلى شيخ قبيلة في الجبال المجاورة لبجاية هو جاسوس وعون للأسبان على المسلمين، يمدهم سنويا بمبلغ من المال قدره 10000 دوكية⁽³⁹⁾ إضافة إلى 1000 قيسة من القمح و1000 خروف و700 عجل و14 فرس مجهزة⁽⁴⁰⁾. وعلى الرغم من أن صاحب الغزوات لم يذكر لنا شيخ القبيلة بالاسم، كما لم يحدد لنا اسم القبيلة إلا أن ذلك الشيخ لم يكن غير سلطان بني عباس كما يؤكد ذلك بربروجر⁽⁴¹⁾ ويؤيده كل من فيرو⁽⁴²⁾ ورين⁽⁴³⁾ وبوليفة⁽⁴⁴⁾ ومولود قايد الذي يذهب إلى القول أن سلطان تونس الحفصي كان يطمع في ضم الجهة الشرقية من المغرب الأوسط فتعاون مع الإخوة بربروس في البداية، وعندما أدرك أنهم يعملون لحساب السلطان العثماني انقلب عليهم وأخذ يحرض زعيم قلعة بني عباس ضدهم، فوجد استجابة منه وذلك لأن الأتراك تحالفوا مع عدوه أمير كوكو⁽⁴⁵⁾.

أما هايدو فيذكر أن ابن القاضي هو الذي كان متحالفا مع الأسبان، فسار إليه عروج من مدينة الجزائر في مطلع عام 1515 وتمكن من قتله وإخضاع الجزء الأكبر من مملكته⁽⁴⁶⁾، ويبدو لنا أن الأمر قد اختلط على هايدو، حيث لم يفرق بين سلطان بني عباس وأمير كوكو، وبرجوعنا إلى ما ورد في كتاب غزوات عروج وخير الدين يتضح لنا أن الذي كان متحالفا مع الأسبان هو عبد العزيز سلطان بني عباس وليس ابن القاضي، حيث ذكر الكاتب نفسه في موضع آخر أن الناحية الشرقية من عمالة الجزائر كان يتقاسمها قارة حسن وابن القاضي، بينما كانت الناحية الغربية رافضة لطاعة خير الدين وهي المنطقة نفسها التي كانت تابعة لحكم سلطان بني عباس⁽⁴⁷⁾.

ومهما يكن من أمر فإن السلطان عبد العزيز يكون بلا شك قد استقاد كثيرا من تحالفه مع الأسبان الذين زدوه بكميات معتبرة من الأسلحة والذخيرة، كما أرسلوا له البنانين لمساعدته على بناء التحصينات بالقلعة حسب ما يذكر فيرو⁽⁴⁸⁾، ويخبرنا هايدو أن الأسبان بذلوا كل جهودهم لمنع قيام أي تحالف بين زعمي إمارتي بني عباس وكوكو ضدهم، وسعوا

أيضا إلى تقسيم منطقة القبائل للقضاء على أية محاولة لمقاومتهم⁽⁴⁹⁾، ويفسر بعض المؤرخين الأسباب التي دفعت سلطان بني عباس إلى التحالف مع الأسبان ومقاومة الأتراك بقيام الأتراك بالتحالف مع عدوه اللدود ابن القاضي أمير كوكو⁽⁵⁰⁾، وربما يكون العداء والحرب التي كانت بين إمارتي كوكو وبني عباس المجاورتين وراء تحالف السلطان عبد العزيز مع الأسبان، خاصة إذا علمنا أن أمير كوكو طلب مساعدة الأتراك للقضاء على أعداءه بني عباس، فقد يكون السلطان عبد العزيز هدف من وراء هذا التحالف إلى توسيع مملكته وتحقيق التفوق العسكري على عدوه.

ومن خلال ما سبق يتضح لنا أن سلطان بني عباس استقاد من تحالفه مع الأسبان في تقوية جيشه وتحصين القلعة عاصمة حكمه، فتقوى على عدوه ابن القاضي، كما يتبين لنا أيضا أن تحالفه مع الحامية الأسبانية ببجاية، لم يكن إلا تحالفا ظرفيا فقط، وهذا ما سنوضحه فيما يلي.

ب. علاقة حرب وتصادم :

إن قدوم الإخوة بربروس إلى الجزائر في مطلع القرن السادس عشر سيكون له الأثر العميق ليس على علاقة سلطان بني عباس بالأسبان المتواجدين في بجاية فقط، بل سيؤثر ذلك حتى على علاقته بأمراء كوكو، وبينما كان خير الدين متواجدا بمدينة جيجل التي اتخذها قاعدة له بعد تونس، ينطلق منها في جهاده البحري في الحوض الغربي للمتوسط وإذا به يتلقى رسالة أخيه عروج حول شيخ القبيلة المتحالف مع الأسبان فعزم على الخروج للقضاء عليه، فكانت المواجهة بجبال بني خيار قرب جيجل، أين تمكن خير الدين من إخضاع السلطان عبد العزيز، الذي اضطر إلى الخضوع له عندما أدرك استحالة التغلب عليه⁽⁵¹⁾، ولكننا نتساءل عن السهولة التي تمكن بها خير الدين من إخضاع سلطان بني عباس رغم قوة جيشه وشدة بأس جنوده، ذلك أن المؤرخين المعاصرين لم يزودونا بتفاصيل أدق عن هذه المواجهة، ما يجعلنا نعتقد أنه كان للتقوى العسكري لجيش خير الدين دور بارز في جعل السلطان عبد العزيز يختار الخضوع له بدلا من الدخول معه في مواجهة غير مضمونة النتائج، كما أشار إلى ذلك بربروجر الذي يرجع سر نجاح الأتراك في بسط نفوذهم على الإيالة إلى تفوقهم العسكري على الأهالي، حيث يقول: "كان الفرق شاسعا بين عتاد الأهالي والأتراك، بينما كان الأتراك يقاتلون باستعمال البنادق والمدافع، كان الأهالي يواجهونهم على طريقة القرون الوسطى بالسهم والنبال فضلا عن تفوق الأتراك في التخطيط الحربي"⁽⁵²⁾.

وبعد خضوعه تعهد السلطان عبد العزيز لخير الدين بفسخ تحالفه مع الأسبان حسب ما يذكر صاحب الغزوات "فضرب عليه خير الدين بمجموعة الغزاة إلى أن تمكن منه، فلما رأى الحبيث أنه حاصل في قبضته وأنه لا خلاص من يده صالحه على العدد الذي كان يعطيه للنصارى وجعله لخير الدين، فرضي منه بذلك وأعلم أخاه عروجا ما قرره على الحبيث الخائن ثم ركب في أجفانه وقدم على أخيه بالجزائر..."⁽⁵³⁾.

ولكي يعبر السلطان عبد العزيز للأتراك على صدق نواياه، وإزالة شكوكهم اتجاهه، فيما يتعلق بفسخ تحالفه مع الأسبان فقد شارك بنفسه على رأس جيش كبير لم تذكر لنا المصادر عدده، إلى جانب خير الدين في محاولته لتحرير بجاية من الأسبان عام 1515 فبرهن بذلك على وفاءه وإخلاصه لهم⁽⁵⁴⁾.

وبعد أن تمكن خير الدين من إخضاع السلطان عبد العزيز تحول هذا الأخير من عدو إلى صديق وحليف له، وكان هذا السلطان حسب المصادر من أبرز سلاطين إمارة بني عباس حيث يصفه مرمول "بأنه من أشجع وأقوى الفرسان في الإيالة، وذكر أن مملكته تمتد حتى المسيلة، وأنه كان في صراع وحرب مع ابن القاضي زعيم إمارة كوكو المجاورة"⁽⁵⁵⁾ ويصفه هايدو كذلك بأنه كان قوي الشخصية وله تأثير كبير على السكان بالإضافة إلى مقاومته للأتراك مقاومة بأسلة، دفاعا عن حرية واستقلال مملكته، ويضيف هايدو في إشارة إلى تسامحه الديني أن الأسرى المسيحيين الذي كانوا يلتجؤون إلى مملكته كانوا يارسون طقوسهم الدينية بكل حرية وكان يترك لهم الحرية في اعتناق الإسلام أو البقاء على دينهم⁽⁵⁶⁾.

ولا نتعجب من وصف هؤلاء للسلطان بتلك الأوصاف، فمرد ذلك لمقاومته الشرسة للأتراك، وربما لأنه كان متحالفا مع الأسبان، أما سعيد بوليفة فإنه يعترض على وصفه بالبطل ويعيب عليه تعاونه وتحالفه مع أعداء الدين والوطن الذين كانوا يحتلون بجاية ووهران وغيرها من المدن الساحلية، ويصفه بالعميل الذي أنقذ الحامية الأسبانية من موت جماعي بحق بما كان مصدر تموين لها، وكان عليه أن يقاتل الأعداء الذين دنسوا مدينة بجاية وعاثوا فيها الفساد وقتلوا سكانها الذين أرغموا على الفرار، لكنه استجاب لإغراءات الأسبان الذين وعدوه بتكينه من الجلوس على عرش بجاية، وطمع في مد نفوذه وسلطته⁽⁵⁷⁾.

كما سبق يتضح لنا أن تحالف سلطان بني عباس مع الأسبان عاد عليه بالفائدة من خلال حصوله على الأسلحة، كما أن الأسبان بدورهم استفادوا أيضا من هذا التحالف بما كان السلطان يمددهم من المؤونة والخشب.

علاقة إمارة بني عباس بالحكام الأتراك:

أ. علاقة صراع وحرب :

لقد كان الأتراك حريصين منذ البداية على ربط علاقات طيبة مع القبائل والأسر النافذة، فعملوا على الارتباط بسلاطين إمارة بني عباس⁽⁵⁸⁾ وذلك يرجع إلى أهمية المنطقة التي كانوا يسيطرون عليها، حيث تقع المنطقة في نقطة الاتصال الوحيدة بين الشرق والغرب، وقد أدرك الأخوين خير الدين وعروج منذ البداية أيضا أن عدم إخضاع المناطق الداخلية سيظل عائقا كبيرا أمام تقدم مساعيهم في إرساء قاعدة حكمهم بهذه البلاد، وأن عدم سيطرتهم

على المنطقة التي كانت خاضعة لسلطنة بني عباس يفقد سلطتهما مقوما أساسيا يضمن لهما فرض نفوذهما على الإيالة⁽⁵⁹⁾.

وفي أوائل عام 1516 استنجد سكان مدينة الجزائر - الذين كانت تحكمهم قبيلة الثعالبة⁽⁶⁰⁾ - بزعامة الشيخ سالم التومي - بعروج لتخليص مدينتهم من الحامية الأسبانية التي أقامت حصنا على إحدى الجزر المتواجدة قرب المدينة الجزائر حصن البينون⁽⁶¹⁾ Le Pénon فاستجاب عروج لنداءهم وتوجه بنفسه على رأس جيش عن طريق البر، وأرسل في الوقت نفسه قوة أخرى عبر البحر إلى مدينة الجزائر⁽⁶²⁾ وعند وصوله شرع في قصف الحصن لعدة أيام لكن ضربات مدافعه لم تكن تصل إلى أهدافها، وقد أدى فشل عروج كما يذكر هايديو إلى تدمير سكان المدينة بما فيهم الشيخ سالم التومي واستيائهم وأظهروا ندمهم على استعانتهم بالأتراك، وتسبب ذلك في وقوع مناوشات بينهم وبين الأتراك فكان تدخل عروج عنيفا حيث قام باغتيال الشيخ سالم التومي ختقا بينما كان في الحمام يتوضأ لصلاة الظهر⁽⁶³⁾ وأعلن نفسه ملكا على البلاد⁽⁶⁴⁾، وعندما رأى سكان المدينة صرامته وشدة بأسه أعلنوا ولاءهم وخضوعهم لسلطته، وبعد مقتل عروج⁽⁶⁵⁾ عام 1517 على يد الأسبان في محاولته فتح تلمسان، خلفه في حكم مدينة الجزائر أخاه خير الدين، الذي أرسل وفد من أعيان المدينة بعد أن طلبوا منه البقاء إلى السلطان العثماني رسالة مع هدايا معتبرة يطلبون منه المساعدة، فجاء رد السلطان بالموافقة وأمدّه بنحو 2000 جندي انكشاري وعدد من السفن الحربية، فأصبحت الجزائر منذ ذلك التاريخ تابعة رسميا إلى الدولة العثمانية⁽⁶⁶⁾.

نلاحظ مما سبق أن الأتراك واجهوا مقاومة من قبل إمارة بني عباس، لكنهم تمكنوا من إخضاعها دون أن يحدث قتال بين الطرفين، كما أن الأتراك كانوا حريصين على الارتباط بإحدى الإماراتين لمساعدتهم على بسط سلطتهم بالمنطقة.

ب - علاقة تحالف وتعاون :

لا شك أن الأتراك أدركوا منذ البداية أهمية التحالف مع كل من زعيم إمارة كوكو وزعيم سلطنة بني عباس أو مع أحدهما على الأقل، وذلك نظرا لقوة نفوذ كل منهما وتأثيرهما على سكان المناطق التي كانت خاضعة لهما⁽⁶⁷⁾، ولأهمية تلك المنطقة التي ظلت تحتفظ باستقلالها وظل سكانها متمسكين بنمط حياتهم الخاص ورفضهم الخضوع للأتراك بالقوة⁽⁶⁸⁾، ولذلك أسرع خير الدين بالخروج إلى سلطان بني عباس للقضاء عليه أو إخضاعه عندما جاءته رسالة عروج كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

وعلى الرغم من قلة المعلومات المتعلقة بتحديد تاريخ ارتباط سلاطين بني عباس بالأتراك، لأن المصادر المعاصرة لتلك الفترة لم تشر إلى ذلك، فالمؤرخ الأسباني هايديو يرجع

أول تحالف بين سلطان بني عباس والحكام الأتراك إلى سنة 1529م، مستندا في ذلك إلى رسالة مؤرخة في نفس السنة بعث بها حاكم بجاية الأسباني إلى حكومته بمدير يدبها عن تحالف خطير جمع بين خير الدين وزعيم بني عباس وابن القاضي⁽⁶⁹⁾، أما مواطنه مرمول فإنه يذهب إلى القول أن أول تحالف للأتراك بزعيم بني عباس كان في عام 1550م حيث دعم سلطان بني عباس الجيش التركي بقوة قادها بنفسه في عهد حسن باشا في حملته ضد المغرب⁽⁷⁰⁾، ويؤيده بربروجر في هذا الرأي⁽⁷¹⁾، في حين يرجع شارل أندري جوليان تحالف الأتراك مع سلطان بني عباس إلى عام 1515 حيث يذكر أن خير الدين اضطر إلى طلب تحالف زعيم بني عباس، في محاولته الثالثة لتحرير بجاية بعد أن فشل عروج في انتزاعها في محاولتين (الأولى عام 1512 والثانية عام 1514) ويضيف أنه بالرغم من ذلك التحالف لم ينجح خير الدين في استرجاع المدينة⁽⁷²⁾. غير أننا نستبعد قول هايدو لأن سلطان بني عباس - حسب بعض المؤرخين - شارك مع خير الدين في القضاء على ابن القاضي في عام 1527 بسبب انقلابه عليه⁽⁷³⁾ وتآمره مع حاكم تونس الحفصي⁽⁷⁴⁾، بعد أن كان حليفه، كما نستبعد القول الذي ذهب إليه مرمول لأن التاريخ الذي ذكره بعيدا جدا عن الحقيقة، ونرجح قول جوليان على أن أول تحالف للأتراك مع بني عباس يعود إلى عام 1515 ويؤيد هذا الرأي عبد الرحمان الجيدالي ومولود قايد، وهي السنة التي خضع فيها هذا الزعيم للأتراك حسب صاحب غزوات عروج وخير الدين.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن حاكم تونس الحفصي كان يتطلع إلى الاستيلاء على الجهة الشرقية من الجزائر، فزحف بقواته برا من ناحية الشرق حسب الاتفاق المبرم، وفي نفس الوقت انقض حليفه ابن القاضي على الجيش التركي في منطقة من أشد المناطق وعورة بمجال فليسة في أعالي جرجرة، فوقع جيش خير الدين بين فكي كماشة الجيش التونسي من جهة وابن القاضي من جهة أخرى حيث أبعد الجيش التركي ولم ينجو إلا خير الدين وبعض رجاله⁽⁷⁵⁾، فاضطر خير الدين إلى التراجع والانسحاب مع ما تبقى من أتباعه إلى تونس، والعمل على جمع قوة جديدة للانتقام من المتآمرين عليه، وبعد الانتصار الذي حققه ابن القاضي على الأتراك قام بالزحف على مدينة الجزائر والاستيلاء عليها بسهولة عام 1519م، وبالرغم من أهمية هذا الحدث وخطورته إلا أن المصادر لم تشر إليه كما لم تحدد مدة احتلال المدينة ولا طريقة إدارتها في ظل حكم ابن القاضي، وقد اختلف المؤرخون والكتاب في تحديد مدة حكم هذا الأخير لمدينة الجزائر، فمنهم من قال أربع سنوات⁽⁷⁶⁾ ومنهم من قال سبع سنوات⁽⁷⁷⁾، لكن من حسن حظ خير الدين كما يقول جون وولف أن أتباع ابن القاضي لم يكونوا مستعدين للاستيلاء على مدينة الجزائر، فبدلا من أن يحلوا محل الأتراك، قاموا بنهبها، وعاثوا فيها الفساد، مما أدى إلى سخط سكان الحضر والمهاجرين الأندلسيين منهم، وأنصح لهم جليا أن يحكم الأتراك أرحم من رجال ابن القاضي⁽⁷⁸⁾.

وبعد انقلاب ابن القاضي على خير الدين لم يجد هذا الأخير من سبيل إلا اللجوء إلى عبد العزيز سلطان بني عباس فطلب التحالف معه في عام 1527 للانتقام من ابن القاضي واسترجاع مدينة الجزائر، فدعمه السلطان عبد العزيز بجيش كبير فتمكن من الإيقاع بابن

القاضي في موقعة ثنية بني عائشة⁽⁷⁹⁾ حيث قتل على يد أحد أتباعه مقابل مبلغ من المال دفعه له خير الدين⁽⁸⁰⁾، وقد أشار صاحب الغزوات إلى مقتل ابن القاضي على يد خير الدين⁽⁸¹⁾. وقد أشاد المؤرخون بالدور الفعال الذي لعبه السلطان عبد العزيز في تمكن خير الدين من استرجاع مدينة الجزائر والقضاء على ابن القاضي، ويذكرون أنه لولا مساعدته لما تمكن من تحقيق ذلك، حيث ضمن له سلامة وأمن الطريق الذي سلكه برا من جيجل إلى مدينة الجزائر⁽⁸²⁾.

وهكذا بدأ التحالف والتعاون بين خير الدين باشا الذي كان لا يزال لم يستقر بعد في حكمه للإيالة، فقد مر بظروف صعبة كادت أن تنتهي من عزمته، تمثلت في مواجهة أعداء في الداخل المتآمرين إما مع الأسبان - كحاكم تلمسان أبو حمو الزباني - أو مع الحفصيين بتونس كقائده حسن قارة وابن القاضي. ويبدو أن هذا التحالف قد عاد على خير الدين بالفائدة والمنفعة، فقد استعان بسلطان بني عباس في حملاته التي انطلق منها من قاعدته جيجل، وتمكن من إخضاع مدن القل عام 1520 وعنابة عام 1521 وقسنطينة عام 1522، وذلك للاستفادة من قوة جيشه وشجاعته ومعرفته الجيدة لهذه المناطق⁽⁸³⁾ وحسب ما يذكر هايدو فقد دعم خير الدين تحالفه مع عبد العزيز سلطان بني عباس بمعاهدة عام 1529 وهي معاهدة تحالف وتعاون⁽⁸⁴⁾، وبالرغم من سكوت المصادر عن محتوى تلك المعاهدة إلا أننا لا نستبعد أن يكون عبد العزيز قد حصل على اعتراف خير الدين به كسيد على المنطقة التي كان يحكمها، وخاصة بعد تخليصهما من عدوهما المشترك ابن القاضي وذلك مقابل تقديم يد المساعدة له عندما يحتاج إليها.

وقد استمرت علاقة الصداقة والود والتحالف بين عبد العزيز وخير الدين حتى مغادرة هذا الأخير إيالة الجزائر إلى استانبول بعد استدعائه من طرف السلطان العثماني سليم الأول عام 1533 للإشراف على قيادة الأسطول العثماني برتبة قيودان باشا، فخلفه في حكم الإيالة مساعده حسن آغا⁽⁸⁵⁾ الذي حافظ على العلاقة الحسنة بينه وبين سلطان قلعة بني عباس حسب ما تذكر المصادر⁽⁸⁶⁾، ولا شك أن البايبر باي الجديد قد أدرك أهمية التحالف مع هذا الزعيم بنفسه نتيجة ملازمته لخير الدين، ولمكانته في المنطقة.

ويذكر مولود قايد - دون أن يشير إلى المصادر التي اعتمد عليها - أن البايبر باي حسن آغا اعترف بالسلطان عبد العزيز حاكما على المنطقة التي كانت تحت نفوذه، وذلك بعد تمكنه من صد حملة شارل الخامس على مدينة الجزائر عام 1541⁽⁸⁷⁾، وبالرغم من أن المصادر لم تشر إلى مشاركة سلطان بني عباس في صد تلك الحملة إلا أن مولود قايد يذكر أن سلطان بني عباس شارك في صد تلك الحملة الشرسة⁽⁸⁸⁾ ويدعم هذا القول ما ذكره هايدو على أن أمير كوكو الحسين بن القاضي الذي خلف أخاه أحمد بن القاضي كان قد وعد الإمبراطور شارل الخامس بتقديم المساعدة له في مدينة الجزائر، ولكن انهزام هذا الأخير أدى إلى تقديمه تلك المساعدة في ميناء بجاية الذي انسحب إليه الملك شارل الخامس⁽⁸⁹⁾.

وفي العام الموالي 1542 قرر البايبرباي حسن آغا معاقبة أمير كوكو الحسين بن القاضي بسبب تأمره مع شارل الخامس، فطلب مساعدة السلطان عبد العزيز الذي دعمه بجيش، فتمكن من القبض عليه بعد هزيمته، لكن ابن القاضي طلب الأمان معلنا عن خضوعه وقبوله دفع الضريبة السنوية ومبلغ من المال وعدد من العجول والخرفان كتعويض عن خسائر الحرب، ولكي يضمن للبايبرباي التزامه بالاتفاق سلمه ابنه أحمد رهينة لديه، فأعطاه الباشا الأمان⁽⁹⁰⁾ وبعد وفاة حسن آغا سنة 1544 خلفه بصفة مؤقتة الحاج بكير حتى قدم من استانبول حسن باشا ابن خير الدين الذي عينه السلطان بايبرباي إيالة الجزائر، فكيف سيكون موقفه من زعيم بني عباس؟ وهل ستستمر علاقة الود والتعاون بين الطرفين كما كانت من قبل؟

لقد استمرت علاقة الود والتحالف بين البايبرباي حسن باشا و سلطان بني عباس، وقد تجلّى ذلك في تحالف هذا الأخير مع حسن باشا الذي أرسل الجيش بقيادة حسن قورصو⁽⁹¹⁾ للقضاء على سلطان فاس (مولاي محمد المهدي) بسبب قيامه بالاستيلاء على تلمسان⁽⁹²⁾ بعد أن خلع عنها حاكمها مولاي أحمد الذي نصبه حسن آغا عام 1544، فدعمه السلطان عبد العزيز بجيش قاده بنفسه يتألف من خمسة عشر ألف (15000) مقاتل، حسبما يذكر مرمول الذي أشار إلى القوة والشجاعة والكفاءة الكبيرة التي أظهرها السلطان عبد العزيز وجيشه، ويذكر أيضا أنه لولاه لما تمكن الأتراك من التغلب على الجيش المغربي، وذلك رغم الخلاف الذي وقع بينه وبين القائد التركي حسن قورصو، وفي هذه الحملة قتل السلطان عبد العزيز سلطان فاس بنفسه وحمل رأسه إلى حسن باشا حيث علق عند باب عزون (أحد أبواب مدينة الجزائر) لعدة أيام⁽⁹³⁾، ومكنت هذه الحملة الأتراك من إخضاع تلمسان عاصمة بني زيان نهائيا إلى سلطتهم. ويذكر فيرو أن سلطان بني عباس عند عودته من تلك الحملة جلب معه نحو 200 فردا من قبيلة الحشم⁽⁹⁴⁾ العربية الساكنة بنواحي معسكر واتخذ منهم خدمه وحرسه الخاص، وظلت هذه القبيلة تخدم الأسرة حتى زوالها⁽⁹⁵⁾.

ويخبرنا مرمول أن مشاركة سلطان بني عباس وجيشه إلى جانب الأتراك في الحملة السابقة سمحت لهم بالتعرف على قدرات جيشه وكفاءته في القتال، فبدأ تخوفهم وغيرتهم منه، وأحسوا أنه سيوجه هذه القوة ضدهم يوما ما، كما أن حسن باشا - حسب نفس المصدر - أصبح يخشى تزايد قوة ونفوذ هذا الزعيم على الحكم العثماني بالمنطقة التي ازداد عدد المتمردين بها، ففكر في التخلص منه وإخضاع إمارته، لكن استدعاه من طرف السلطان العثماني إلى استانبول في عام 1551م حال دون ذلك⁽⁹⁶⁾، واستمرت علاقة أولاد مقران بالحكام الأتراك بين مد وجزر، تارة يكونون في حالة وفاق وصداقة وتعاون، وتارة أخرى يكونون في حالة عداء وحرب حتى نهاية حكمهم بالإيالة.

من خلال استعراضنا للعناصر السابقة يمكننا أن نستنتج أن زوال حكم الدولتين الحفصية في الجهة الشرقية من المغرب الأوسط والزيرية في الجهة الغربية منه، وعجزهما

الواضح في الدفاع عن السواحل التي تعرضت لهجمات شرسة للإسبان، قامت إمارتين محليتين داخليتين اتخذتا من الجبال المنيعة مقرا لحكهما هما إمارة كوكو في جبال جرجرة وبني عباس في أعالي جبال البيبان، وكان للإمارتين الدور الرئيس في منع تقدم الإسبان وتوغلهم نحو الداخل، كما يمكننا الاستنتاج أن أمراء قلعة بني عباس ارتبطوا بالإسبان في بداية الأمر بالتحالف لكنهم تحولوا إلى مقاومتهم عند قدوم الإخوة بربروس إلى المغرب الأوسط، حيث بدلوا تحالفهم مع الإسبان بالتحالف مع الأتراك ومن ثمة لعبوا الأدوار الأساسية في تمكينهم من بسط نفوذهم في المنطقة، كما ساهموا في تطهير السواحل الجزائرية من الاحتلال الإسباني.

وكان أمراء قلعة بني عباس يمثلون سندا قويا للحكام الأتراك في حالة السلم من جهة، كما كانوا يتعاملون مع الند للند في حالة توتر العلاقات من جهة ثانية، حيث كان تحكمهم في مضيق البيبان الممر الوحيد للاتصال ببايلك الشرق يجبر الحكام الأتراك على مهادنة أمراء بني عباس والتعامل معهم بليونة فكانوا يدفعون ضريبة عبورهم الممر السابق الذكر، وظلوا كذلك حتى سقطت المنطقة في أيدي الاحتلال الفرنسي .

- 1 - Youssef Ben Oudjit: La Kalaa des Beni Abbés, au XVIe siècle, édition Dahlab, 1997., p108.
2. اسماعيل العربي: دولة بني حماد ملوك القلعة وبجاية، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1980، ص 136 .
- 3 . ينتسب أسرة ابن القاضي إلى أبو العباس أحمد بن عبد الله الغبريني، كبير بجاية وقاضياها في عهد أبي البقاء الحفصي حاكم بجاية عام 1311م، ذكره ابن خلدون أنه من قبيلة غبرين وهي فرع من صنهاجة استقرت منذ القديم بأعالي نهر سبواو، والقاضي أبو العباس الغبريني هو مؤلف كتاب عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، أنظر: عبد الرحمان بن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، م6، الكتاب الثالث، دار الكتاب اللبناني، ص153، 1969. أنظر كذلك:
- Said. Boulifa : le Djurdjura à travers l'histoire depuis l'antiquité jusqu'à 1830, : Alger, 1925, p 117
- 4 . تعرف عند سكان القلعة "بأقرايت"، المكان الذي يوجد فيه ضريح سيدي عبد الرحمان وتقع في وسط القلعة.
- 5 - Ch. Féraud : « histoire des villes de Constantine – Bordj Bou Arrerijj », in, R. S. A. C, Constantine, 1872, p205.
- 6 . أبو القاسم سعد الله: تاريخ العدواني، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1996، ص148.
- 7 . S. Boulifa: op. cit, p194.
- 8 . لايزال أولاد مقران يذكرون هذا السوق سوق الباطل.
- 9 - Ch. Féraud: op, cit, p205 .
- 10 - Ch.Féraud : op, cit, p206.
- 11 - Ibid, P207 .
- 12 - Marmol (Carvajal Louis del): Description général de L'Afrique, traduit par Nicolas Perrot Sieur D'ablancourt, Paris, T2, LV, p425 .
- 13 - F.D. de Haedo : Topographie et histoire générale d'Alger, traduit de l'espagnol par Monereau et A Berbrugger, édition Bouchène, Paris, 1998, p 163. .
- 14 - أحمد بن محمد بن علي بن سحنون الراشدي: الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق وتقديم، المهدي البوعبدلي، الجزائر، 1973، ص17.
- 15 . أحمد ساحي: من أعلام زواوة، مطبعة الثورة الافريقية، (د.ت)، ص14.
- 16 - Tahar Oussedik: le Royaume de Koukou, E.N.A.L, Alger, 1986, p21.
- 17 - Ch. Féraud : op, cit, p208.
- 18 - زواوة هي قبيلة تقع جنوب شرق تامقوت، بين قبيلة آيت جناد وآيت يجر، وهي من أكبر القبائل بمنطقة جرجرة، لكن التسمية أصبحت تطلق على كل منطقة القبائل الكبرى.
- 19 - S.Boulifa: op. cit, p15.
- 20 - Ch. Féraud : op, cit, p209 .

- 21 . عبد الكريم الفقون: منشور الهداية في كشف من ادعى العلم والولاية، تقديم وتحقيق وتعليق سعد الله أبو القاسم، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987، ص148.
- 22 . حمدان خوجة: المرأة، تعريب محمد العربي الزبيري، ط2، ش. و. ن. ت، الجزائر، 1982، ص 67 .
- 23 . يحي بوعزيز: ثورة 1871 (دور عائلي القراني والحداد)، ش، و، ن، ت، الجزائر، 1975، ص 44 .
- 24 . حمدان خوجة، ص 68.
- 25 - L. Rinn: op.it, p12 .
- 26 - Ch. Féraud: op, cit, p210 .
- 27 - S. Boulifa: op, cit, p158.
- 28 - Ch. Féraud: op, cit, P208 .
- 29 - S. Boulifa: op, cit, p 158 .
- 30 - Ch.Féraud: op.cit, P210 .
- 31 . الورثياني: (الحسين بن محمد): نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، تحقيق ونشر محمد بن أبي شنب، مطبعة فونتانا، الجزائر، 1908، ص8.
- 32 - Ch. Féraud: op, cit, P211 .
- 33 . كان الأسبان قد تمكنوا من احتلال المرسى الكبير عام 1505 ووهران عام 1509.
- 34 - Ch. Féraud : op, cit, p211 .
- 35 - Y.Ben Oudjit: op, cit, p115 .
- 36 . لم توضح لنا المصادر نوع هذه الحمولة، أهي حمولة سفينة، أو غير ذلك.
- 37 - Paul Wintzer : Bougie, place fort Espanol, Paris, 1972, p204 .
- 38 - P. Wintzer: op, cit, P205 .
- 39 . قدرها بربروجر ب 82600 فرنك، أنظر: Berbrugger: (Adrien): les époques militaires dans la grande Kabylie, Paris, 1857, p59
- 40 . مجهول المؤلف: غزوات عروج وخير الدين، تعليق نور الدين عبد القادر، الجزائر، 1934، ص40.
- 41 - Berbrugger: op, cit, p60.
- 42 - Féraud: op, cit, p211 .
- 43 - Rinn: op, cit, p13 .
- 44 - Boulifa: op, cit, p159 .
- 45 - Gaid: Mokrani, édition Andalouse, Alger, 1993, p38, p51 .
- 46 - Haedo: Ibid, p52 .
- 47 . غزوات عروج وخير الدين: المصدر نفسه، ص56.
- 48 - Féraud: op, cit, p214 .
- 49 - Haedo: op, cit, p53.
- 50 - Rinn: op, cit, p11
- E. Mercier: Histoire de l'Afrique septentrionale depuis: أنظر كذلك: les temps les plus reculés jusqu'à la conquête Française (1830), T2, Ernest

Leroux éditeur, Paris, 1888, p424.

51 - Berbrugger: op, cit, p60.

52 - Berbrugger: op, cit, p46 .

53 - غزوات عروج وخير الدين: المصدر نفسه، ص30.

54 - Haedo: op, cit, p356 .

أنظر كذلك: عبد الرحمان الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، ج3، ط7، د م ج ، الجزائر، 1994، ص261.

55 - Marmol: op, cit, p425

56 - Haedo: op, cit, p356 .

57 - Boulifa: op, cit, p159 .

58 - صالح فركوس: المرجع نفسه، ص288 .

59 - Ernest.Mercier: op, cit, p424.

60 - قبيلة الثعالب: قبيلة عربية تنحدر من ثعلب بن علي بن بكر بن صغير من عبيد الله، لمزيد من التفاصيل راجع، ابن خلدون: المصدر نفسه، المجلد السادس، القسم الأول، ص126 وما يليها .

61 - يسمى أيضا برج الفنار وقد تمكن خير الدين من تحطيمه في يوم 16 ماي 1530

62 - أحمد توفيق المدني: محمد عثمان باشا داي الجزائر (1766 - 1791)، م، و، ك، الجزائر، 1986، ص23

24 . أنظر كذلك: Haedio: op, cit, pp 52- 53 .

63 - اختلفت الروايات حول مقتل سالم التومي بين من يذكر أنه قتل خنقا على يد عروج، ومن يقول أن عروج شنقه علانية، ورأي آخر يذكر أنه مات مسموما، أنظر: خليفة إبراهيم حماش: المرجع نفسه، ص27 .

أنظر كذلك: Corinne Chevalier : Les trentes Années de l'Etat d'Alger

، 1510 - 1541، p43، 1986، O.P.U, Alger .

64 - Haedo : op, cit, p53 .

65 - يذكر بربروجر أن ابن القاضي (حليف الأتراك) انسحب بجيشه عائدا إلى بلاد القبائل متخليا عن عروج مما جعل خير الدين يتهمه بالتسبب في مقتله وسعى إلى الانتقام منه فساءت العلاقات بين الطرفين. أنظر: Berbrugger: op, cit, p61

66 - Haedo: op, cit, p53.

راجع كذلك 67. De Grammont : op, cit, p59

67 - ناصر الدين سعيدوني، المهدي البوعبدلي: الجزائر في التاريخ (العهد العثماني)، وزارة الثقافة والسياحة، م. و. ك. الجزائر، 1984، ص، 108

68 - Abdeljelil Temimi: Le Beylik de Constantine et Hadj Ahmed Bey (1830-1837), Tunis, 1978, p63 .

69 - Haedo: op, cit, p120 .

70 - Marmol: op, cit, p425 .

71 - Berbrugger: op, cit, p59 .

72 - Charles André Julien : histoire de l'Afrique du nord, T2, Paris, 1975, p 254 .

73 - A.Berbrugger: op, cit, pp62-63.

- 74 . أنظر نص رسالة حاكم تونس الحسن الحفصي إلى ابن القاضي يحرضه على الانقلاب ضد خير الدين، ويطلب منه التحالف معه لطرد الأتراك من الجزائر، في: غزوات عروج وخير الدين، ص40 وما يليها.
- 75 . غزوات عروج وخير الدين: ص ص40 -41.
- 76 . أحمد توفيق المدني: المرجع نفسه، ص65.
- 77 . لمزيد من التفاصيل راجع كذلك، غزوات عروج وخير الدين، ص، 44 وما يليها . وكذلك: أحمد توفيق المدني: المرجع نفسه، ص 25 .
- 78 . جون، ب، وولف: الجزائر وأوروبا، ترجمة وتعليق، أبو القاسم سعد الله، الجزائر، 1986، ص39.
- 79 . هي منطقة "الثنية" الواقعة إلى الشرق من الجزائر العاصمة.
- 80 . يذكر بعض المؤرخين أن خير الدين وزع المال على رجال ابن القاضي على أن يأتوه برأسه ومنح لقاتله ملغ 4000 دوكة. أنظر:
- Ernest.Mercier: Histoire de Constantine, Constantine, 1903, p190.
- وكذلك : M.Gaid : l'Algérie sous les turcs, S.N.E.D Alger, 1974, p50 .
- 81 . غزوات عروج وخير الدين: المصدر نفسه، ص45.
- 82 . E.Mercier: op, cit, p191.
- 83 . Haedo: op, cit, p, 120.
- أنظر كذلك : M. Gaid: Chronique des Beys de Constantine, p19
- 84 - Berbrugger: op, cit, p78
- 85 . يسميه المؤرخون قاهر شارل الخامس، وهو سرديني الأصل، نشأ في حاشية خير الدين فلاحظ خصاله الحميدة، وإخلاصه ووفاءه، فاختره خليفة له لثقتة الكبيرة فيه . أنظر: مولاي بلحميسي : «غارة شارل الخامس على مدينة الجزائر»، الأصاله، عدد 8، جوان 1972، ص 93 .
- 86 - Haedo: op. cit, p228
- 87 . حول تفاصيل حملة شارل الخامس (1541م) يراجع: Haedo: op, cit, p228 . وكذلك :
- 88 - op, cit, p68 et suivantes. De Grammont
- 89 - Haedo : op.cit, p230 . أنظر كذلك : Berbrugger: op, cit, p78 -A.
- 90 - Haedo : op.cit, p230
- 91 . أصله من كورسيكا، تقلد منصب الباشا بعد وفاة صالح رايس، وانتهى مصيره بقتله بسبب تمرده
- 92 . حول تفاصيل هذه الحملة راجع : Marmol: op, cit, p 425
- أنظر أيضا: Haedo : op.cit, p231
- 93 - Rinn : op, cit., p10 . أنظر كذلك : Carrette: op, cit., p456
- 94 . الحشم هم فرقة خاصة ظهرت في تاهرت منذ عهد الإمام عبد الرحمان، فكانت حشمة، وكانت جزء من جند السلطان وهي بمثابة ما يعرف اليوم بالقوات الخاصة أو الحرس الجمهوري، وتشتهر باسم هاشم أيضا، وهي إحدى بلديات ولاية معسكر في الوقت الحالي.
- 95 - Féraud: op, cit, p219 .
- 96 - Marmol: op.cit, p425 .